علم التاريخ عند العرب

للأستاذ عبد الحميد العبادى

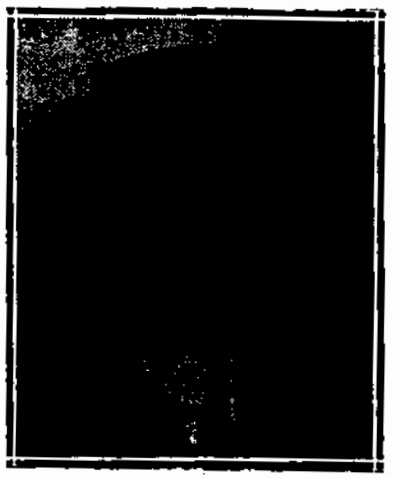

التأريخ بالهمز والتاريخ بدون همز ، والتوريخ ، تعريف الوقت. وهو لفظ عربى أصيل ، وقيل بل دخيل مأخوذ من أصل سريانى معناه (الشهر) ؛ وكانوا قبل الاسلام يوقتون بالنجوم والأهلة يكبسون الشهور إلحاقاً للسنة القمرية بالسنة الشمسية ؛ وكانوا يؤرخون من الحوادث العظام والوقائع المشهورة كعام الفيل وبناء الكعبة ونحوهما . فلما كانت خلافة ثانى الخلفاء أمر عمر الناس فأرخوا من عام الهجرة ، ومضى الأمر على ذلك حتى يومنا هذا

هذا فى اللغة ؛ أما فى الاصطلاح فالتاريخ عندهم فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها ، وموضوعه الانسان والزمان. وهو على هذا المعنى قديم عندهم ، نما معرفة بسيطة ساذجة من معارف العرب قبل الاسلام ، ثم تكمل على الزمن حتى أصبح علماً من أجل علومهم وأعظمها شأناً . فعرب الجاهلية كانوا لغلبة الأمية عليهم يتذاكرون أيامهم وأحداثهم من طريق الرواية الشفوية على هيئة أشعار مقصدة أو أخبار متفرقة ؛ وشذ عن تلك الحال من اطرح منهم البداوة ونزل حواضر الجزيرة وخاصة أهل اليمن والحيرة ، فقد نقش الأولون بالخط المسند على مبانيهم لمعا من أخبار ملوكهم وشئونهم العامة ؛ ودون الآخرون بخطهم أخبار مملكتهم وأودعوها أديار الحيرة وكنائسها

فلما جاء الاسلام ، وقامت الدولة العربية ومست الحاجة إلى معرفة سيرة الرسول العربى وأحواله استقصاء للسنة توفر رجال على جمع أخبار السيرة وتدوينها ، فكان ذلك بدء اشتغال العرب فى الاسلام بالتاريخ ، وإن كان التاريخ لم يخرج يومئذ عن كونه نوعا من أنواع الحديث . وأقدم من كتب فى موضوع السيرة عروة بن الزبير بن العوام المتوفى عام ٩٣ هـ ، وأبان بن عثمان ابن عفان المتوفى عام ١٠٥ هـ ، ووهب بن منبه المتوفى حوالى عام ١١٠ هـ . ثم انتهى علم السيرة والمغازى إلى رجلين من الموالى هما محمد بن اسحق المتوفى عام ١٥٢ هـ وقد اختصر سيرته ابن هشام المتوفى عام ٢١٨هـ ومختصره هذا هو الذى بأيدى الناس اليوم ؛ ثم محمد بن عمر الواقدى المتوفى عام ٢٠٧ ، وكثير من روايته مضمن فى كتاب الطبقات الكبير لابن سعد المتوفى عام ٢٣٠ هـ هذا إلى كتاب له فى مغازى الرسول مطبوع متداول

***

وفى أثناء ذلك كانت قد تمت الفتوح العربية الكبرى ، ووقعت الفتن العظمى ، ونبض عرق العصبية القبلية ، وشاعت بين المسلمين أخبار الأمم القديمة والديانات غير الاسلامية على أيدى رجال مثل كعب الأحبار المتوفى عام ٣٤ هـ (؟) وعبيد بن شرية المتوفى حوالى عام ٧٠ هـ ووهب بن منبه المتوفى حوالى عام ١١٠ هـ فتوافرت أسباب شتى اقتضت جمع وتدوين الأخبار المتصلة بكل ذلك ؛ فتدوين أخبار القدماء مثلا دعت اليه رغبة العلماء فى فهم إشارات إلى الأمم الغابرة وردت فى الكتاب والسنة ، وميل بعض الخلفاء كمعاوية والمنصور إلى الاطلاع على سياسات الملوك ومكايدهم ؛ هذا فضلا عن حرص الموالى على التنويه بمجد بلادهم القديم . ثم إن تدوين الأنساب وأيام العرب كان مطاوعة لحاجة الشعراء اليها عامة فى مقام الفخر والهجاء ، وحاجة الدولة للأنساب خاصة للاستعانة بها فى تقدير العطاء للجند . وكان الباعث الأقوى على تدوين أخبار الفتوح رغبة ولاة الأمور فى معرفة ما فتح من البلدان صلحا ، وما فتح عنوة ، وما فتح بعهد ، لأن لكل حكما خاصا من حيث الجزية والخراج . فلما دون ذلك كله وجد إلى جانب السيرة نوع آخر من الرواية التاريخية موضوعه أخبار الماضين ، وأحوال الجاهلية ، وحوادث الاسلام . وقد أطلقوا على ذلك كله لفظ «الأخبار» وعلى المتخصص فى روايته «الأخبارى» كما عرف المتخصص فى رواية الحديث «بالمحدث» . ونلحظ النقلة من الحديث إلى الأخبار فى رجال خواص منهم ابن اسحق والواقدى المتقدما الذكر ، والمدائنى المتوفى عام ٢٢٥ هـ . فكل

من هؤلاء كان محدثا وأخباريا معا . كما نلحظ بداية التخصص فى الأخبار فى مثل محمد بن السائب الكلبى المتوفى عام ١٤٦ هـ وكان مقدما فى علم الأنساب ، وعوانة بن الحكم المتوفى عام١٤٧ وقدجمع أخبار بنى أمية ، وأبى مخنف المتوفى عام ١٥٧ ، وله كتب فى الردة ووقعة الجمل ووقعة صفين وأخبار الخوارج . وسيف ابن عمر المتوفى عام ١٧٠ وله كتاب كبير فى الفتوح ، وهشام بن محمد بن السائب الكلبى المتوفى عام ٢٠٤ وله فى أخبار الأوائل وأيام العرب وأنسابهم وأخبار الأسلام كتب كثيرة أحصاها ابن النديم فى كتاب الفهرست ، وقد طبع منها حديثا « كتاب الأصنام »

وقد وجد فى تلك المرحلة نوع من التخصص المحلى فى رواية الأخبار ، فكان لبعض الأقطار الأسلامية الرئيسية أخباريون اختصوا بجمع أخباره وتدوينها . قال ابن النديم : « قالت العلماء : أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيدعلى غيره ، والمدائنى بأمر خراسان والهند وفارس ، والواقدى بأمر الحجاز والسيرة. وقد اشتركوا فى فتوح الشام »

على ان المحدث كان عند جمهور ذلك الزمان أشرف موضوعا وأسمى منزلة من الأخبارى ؛ وذلك يرجع إلى شرف موضوع الحديث والى أن الأخبار وخصوصا قديمها كانت مظنة الأغراب والتلفيق والاختلاق . ولقد بلغ الأمر بهم ان كانوا يضعفون المحدث إذا مال إلى الأخبار ، فقد ضعفوا محمد بن إسحق وكان أصلا راوية للحديث . ثم صار يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم أهل العلم الأول . وربما لم يستحسنوا للفقيه المختص باستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة أن يتوفر على طلب الأخبار. ذكر ابن خلكان ، أن أبا يوسف كان يحفظ المغازى وأيام العرب وأنه مضى ليستمع المغازى من محمد بن اسحق أو غيره وأخل بمجلس أبى حنيفة ، فلما أتاه قال له أبو حنيفة ، يا أبا يوسف امن كان صاحب راية جالوت؟ فقال له أبو يوسف : إنك إمام ؛ وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملأ أيما كان أولا ، وقعة بدر أو أحد ، فإنك لاتدرى أيهما كان قبل الآخر ، فأمسك عنه »

* * *

وجملة القول أن أهل السيرة والأخبار قد رسموا فى أواخر القرن الثانى الموضوعات الأساسية للتاريخ عند العرب ، وهى أموراً أربعة : (١) أخبار الملاحين (٢) أحوال العرب قبل الاسلام (٣) السيرة (٤) أخبار الدولة الاسلامية . ومن أوائل القرن الثالث إلى أوائل الرابع يلحظ الباحث زيادة جوهرية فى المادة التاريخية ودقة وتحرراً فى مصادرها . فقد استقرت دواوين الدولة العباسية وتمهدت قواعدها ولا سيما دواوين الانشاء والجند والخراج والبريد ، وأمكن المشتغلين بالتاريخ أن ينتفعوا بها فى بحثهم ، كما يؤخذ مما اشتملت عليه تواريخ القرن الثالث من عهود رسمية ومراسلات سياسية وإحصاءات للمواليد والوفيات ، ومدد ولاية كبار الدولة من وزراء وقواد وعمال وقضاة وولاة لمواسم الحج ووصف للحروب الداخلية ووقائع الغزو على الحدود صيفاً وشتاء وغير ذلك . ثم إنه فى العصر المذكور قويت حركة النقل عن اللغات الأجنبية كالفارسية والسريانية واليونانية واللاتينية . وقد بدأت هذه الحركة من حيث التاريخ بترجمة ابن المقفع عن الفارسية حوالى عام ١٤٠ لكتابى خدينامه وآيينامه فى تاريخ الفرس وأحوالهم ؛ ومن هذا القبيل كتاب عهد أردشير الذى ترجمه إلى العربية البلاذرى المتوفى عام ٢٧٩ ، ومنه أيضاً ترجمة تاريخ هيروشيوس وإن كان ذلك قد تم بالأندلس حوالى منتصف القرن الرابع . ثم إن سهولة الانتقال بين أنحاء الدولة الاسلامية حملت كثيراً من طلاب العلم والمؤرخين خاصة على الرحلة فى طلب الرواية وأخذها عن الشيوخ ، ولرؤية عجائب البلاد ومشاهدة آثارها ، فوجد بذلك مصدر هام للمادة التاريخية هو المشاهدة والمعاينة . وعلى الجملة فإن مؤرخى القرن الثالث حددوا بصفة عامة مصادر التاريخ عند العرب فكانت أربعة أشياء (١) كتب السيرة والأخبار (٢) السجلات الرسمية (٣) الكتب المنقولة عن اللغات الأجنبية (٤) المشاهدة والعيان

ويتعاظم المادة التاريخية وتحرر مصادرها بالقياس إلى ما كانت عليه الحال من قبل لم ير كثير من أفاضل العلماء وثقات الفقهاء بأساً بالتوفر على دراسة التاريخ والتأليف فيه ؛ ومن ثم أخذ التاريخ مظهره الرائع كعلم من أجل علوم المسلمين وأعظمها شأناً ، وأخذ المؤرخون مكانتهم بين علماء الدولة الاسلامية كرجال لهم خطرهم فى الحياة العامة سياسية كانت أو عقلية أو أدبية . وتضاءل مدلول لفظ الأخبارى حتى أصبح كما فسره بعد السمعانى المتوفى عام ٥٦٢ بقوله : « ويقال لمن يروى الحكايات

والقصص والنوادر الأخبارى ، نذكر من بين مؤرخى القرن الثالث ابن قتيبة صاحب كتاب المعارف وقد توفى عام ٢٧٠ ، والبلاذرى صاحب كتابي فتوح البلدان وأنساب الأشراف وتوفى عام ٢٧٩ ، واليعقوبى صاحب التاريخ المضاف إليه وتوفى عام ٢٨٤ ، والدينورى صاحب الأخبار الطوال والمتوفى عام ٢٩٠ وابن جرير الطبرى صاحب تاريخ الرسل والملوك والمتوفى عام ٣١٠ هـ

* * *

أخذت الوحدة السياسية التى انتظمت الدولة العباسية تتداعى من منتصف القرن الثالث ، ولم تلبث تلك الدولة أن أصبحت مجموع دويلات عديدة يحكمها متغلبون مختلفو الأجناس فى مشارق الدولة ومغاربها ، وجرت اللامركزية السياسية إلى لا مركزية أدبية ، فتوزعت الثقافة الاسلامية على الأمصار بعد أن كادت تكون مجموعة فى حاضرة الخلافة وحدها . ونافست بغداد قرطبة والقيروان ومصر وحلب وأصفهان ، وغزنة والرى وبلخ وغيرها ، وكثر العلماء فى الأمصار كثرة عظيمة . كل ذلك أثر فى كتابة التاريخ عند العرب تأثيراً كبيراً يتضح فى كثرة ماظهر إبتداء من منتصف القرن الثالث من التواريخ المحلية وكتب التراجم والطبقات خاصة ؛ من ذلك تاريخ فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى عام ٢٥٧ ، وكتاب ولاة مصر وقضاتها للكندى المتوفى عام ٣٥٠ وتاريخ بغداد وأعلامها للخطيب البغدادى المتوفى عام ٤٦٣ ، وتاريخ دمشق وأعلامها لابن عساكر المتوفى عام ٥٧١ . والبيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى (القرن السابع) . ومعجم الأدباء لياقوت الحموى (٦٢٦) . ووفيات الأعيان لابن خلكان (٦٨١ هـ) وإلى جانب ذلك ظلت سلسلة التواريخ العامة مطردة من حيث انتهى الطبرى ، فوضع المسعودى المتوفى عام ٣٤٦ كتابيه مروج الذهب وأخبار الزمان ، وصنف ابن مسكويه (٤٢١) تجارب الأمم ، وابن الأثير (٦٣٠) كتابه الكامل

واستتبع التفرق السياسى وهن القوة الذاتية للعالم الاسلامى فطمع فيه أعداؤه من وراء الحدود واجتروا عليه واستباحوا حماه ، وبدت مقدمات ذلك فى استئساد الروم وانتقاصهم شمالى الشام فى القرن الرابع ، ثم أغار الصليبيون فى القرن الخامس والسادس على ملك المسلمين بالمغرب والمشرق ، ولم تكد تلك الغمة تنجلى عن العالم الاسلامى حتى كانت الداهية الدهياء والطامة الكبرى وهى غارة المغول ، فقضى على الخلافة العباسية ودمرت معالم الحضارة الاسلامية فى القارة الآسيوية تدميرا

واتضحت عبر التاريخ وصروف الزمن بعد تلك الأحداث الجسام والخطوب العظام ، فكان طبيعيا أن ينحو المؤرخ الاسلامى فى التاريخ تلقاء ذلك كله منحى فلسفيا عميقا فيتعرف علل الحوادث وأسباب قيام الدول وأسباب سقوطها ومظاهر العمران وأصول الاجتماع ونحو ذلك . وهذا ما صنعه فيلسوف مؤرخى العرب قاطبة عبد الرحمن بن خلدون المتوفى عام ٨٠٨ فى مقدمة تاريخه التى لم يكتب مثلها فى الأسلام على الاطلاق . ثم لم يلبث علم التاريخ أن نظر إليه على أنه يمكن أن يكون هو نفسه محلا للتاريخ فوضع فى ذلك الصفدى (٧٦٤) مقدمة كتابه الوافى بالوفيات ، والسخاوى المتوفى عام ٩٠٢ كتابه « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ »

فيرى القارىء أنه فيما بين الرواية الشفوية القديمة وفلسفة التاريخ لابن خلدون وتاريخ التاريخ للسخاوى ، قد نما التاريخ عند العرب وتفرع وأزهر وأثمر ، فلما نضب معينه بانحلال الحياة الاسلامية العامة المستقرة جرى عليه مايجرى على الأحياء من حكم البلى والفناء متى انقطعت مادة حياتها

* * *

ذلك مجمل حال التاريخ عند العرب نشوءاً واكتمالا وهرماً وفناء ؛ أما من حيث الطريقة العلمية التى اتبعوها فالتاريخ ابتدأ عندهم كما رأينا فرعاً من علم الحديث فكان حرياً أن يتأثر بطريقة المحدثين فى جمع الرواية التاريخية ونقدها . فكان أهل السيرة والمغازي والأخبار يجمعون مأثور الروايات ويدونونها مع إسنادها إلى مصدرها الأصلى وهو عادة رجل عدل له علم مباشر بالواقعة المروية كأن يكون عاينها أو اشترك فيها كما هى الحال فى رواية أخبار السيرة والاسلام ، أو أخذها من بعض مظانها ككتاب قديم ضاع ، أو من بعض أهل البادية ، وتلك كانت الحال فى رواية أخبار الأمم القديمة والعرب قبل الاسلام . فكان النقد عندهم أو الجرح والتعديل كما يسمونه ذاتياً منصباً على الرواة ، لا موضوعياً منصباً على المرويات . هذه الطريقة ضمنت

لهم إلى حد بعيد صحة الأخبار المتصلة بالقسم التاريخى من السيرة وبحوادث الدولة الاسلامية ، ولكنها عجزت عن أن تضمن لهم ذلك فى أخبار القدماء والعرب قبل الإسلام والقسم الأول من السيرة . والحق أن هذه الموضوعات الأخيرة هى أضعف وأغمض نواحى كتب التاريخ عند العرب .

واذا كان الأسناد عندهم أساس نقد الأخبار فقد كان أساس ضبطها هو التوقيت الدقيق بالسنين والشهور والأيام ، وهو ضابط انفردوا به عن نظرائهم عند اليونان والرومان وأوروبا فى العصور الوسطى . قال المؤرخ الانجليزى (بكل) : ان التوقيت على هذا النحو لم يعرف فى أوروبا قبل عام ١٥٩٧ . على أن هذا النظام ابتدأ ضعيفا عندهم ، فكثير من حوادث الفتوح الأولى قد وقع فى توقيته خلط شديد واختلاف كثير . ثم تكمل التوقيت على مر الزمن بتعدد طرق الخبر الواحد وبالأخذ عن المصادر الرسمية التى سبقت الاشارة اليها .

وقد اتبعوا طريقة علماء الحديث كذلك فى تدارس كتب التاريخ وتلقيها عن مؤلفيها بالسند المتصل قراءة وسماعا وإجازة ؛ فكتاب الأصنام مثلا تتصل سلسلة روايته عن ابن الكلبى من عام ٢٠١ إلى قريب من عام ٥٠٠ ، ومثل ذلك يقال فى مغازى الواقدى وكثير غيره من كتب التاريخ . وتلك مبالغة محمودة فى المحافظة على النصوص التاريخية الهامة والكتب المعتبرة أمهات وأصولا .

تلك طريقتهم فى جمع الرواية التاريخية ونقدها وضبطها ؛ أما عرضهم لها فأصحاب السيرة والمغازى والأخباريون الأوائل كانوا يجمعون الروايات ويرتبونها بحسب موضوعاتها رسائل أو كتباً تشبه أبواب الحديث ؛ ثم جاء المؤرخون فسلكوا فى عرض الحوادث طريقتين أولاهما وأقدمهما الترتيب على السنين ، ويظهر أن أول من صنف على هذا النمط الهيثم بن عدى المتوفى عام ٢٠٧ ، ثم اتبعها من بعده الطبرى وابن مسكويه وابن الأثير وأبو الفداء . والأخرى الترتيب على العهود ، وقد جرى عليها اليعقوبى والدينورى والمسعودى وغيرهم .

ويتصل بعرض الحوادث أسلوب أدائها وتصويرها : أما الأسلوب فكان على وجه العموم سهلا غير متكلف ، وأما التصوير فكان فيه وضوح وقوة وحياة كما فى العقود الأولى من تاريخ الطبرى وفى بعض فصول ابن مسكويه والصولى .

ويمكن تلخيص أوجه النقص فى طريقتهم فى أمور ثلاثة : ضعف ملكة النقد عندهم بوجه عام ، وادارتهم التاريخ على الأفراد والحروب والسياسة فى أبسط صورها ، وعدم عنايتهم بالشئون العامة للجماعات أو بتعليل الحوادث والنفاذ إلى أسرارها

على أنه مهما قيل فى نقص طريقتهم من الناحية العلمية فحسبهم أنهم خلفوا للمؤرخ الحديث ثروة تاريخية طائلة يستطيع أن يتدارك فى صياغتها ما فاتهم . وإن العالم الحديث يسجل لهم أنهم أول من حاول ضبط الحوادث بالاسناد والتوقيت الكامل ، وأنهم مدوا حدود البحث التاريخى ونوعوا التأليف فيه وأكثروه إلى درجة لم يلحق بهم فيها من تقدمهم أو عاصرهم من مؤرخى الأمم الأخرى ، وأنهم أول من كتب فى فلسفة التاريخ والإجتماع وتأريخ التاريخ ، وأنهم حرصوا على العمل جهد طاقتهم بأول واجب المؤرخ وآخره ، وهو الصدق فى القول والنزاهة فى الحكم

عبد الحميد العبادى